المقاربةالسيميائية

***المفهوم**: السيميائية (sémiotique)، أو العلاماتية/ علم العلامات/ السيميولوجيا (sémiologie)، هي دراسة العلامات المستخدمة لتحقيق التفاهم المتبادل. وفي اللسانيات تحتل العلامة اللغوية المكان الأول والأساس بين علامات التواصل. أما بالنسبة للفلاسفة فتشمل الدراسات السيميائية كل الإشارات التواصلية. وبهذا المعنى (الفلسفي) تطورت السيميائية خلال القرن، بوصفها فرعاً من فروع العلم، وهي المجال الذي تلقاه كثير من الباحثين بالقبول في الآونة الحاضرة.

وأول علماء السيميائية من بين اللسانيين هو دو سوسير. فقد كانت نظريته في اللغة مؤسسة إلى حد كبير على فحص العلامة اللغوية. ولا تزال هذه المشكلة قائمة إلى حد الآن (إعلان سوسير عن ميلاد علم جديد يهتم بكل العلامات سمّاه السيميولوجيا).

اجتذبت الظاهرة السيميائية اهتمام الفلاسفة منذ وقت مبكر، غير أنّ أسس السيميائية الحديثة لم توضع إلاّ في النصف الأول من القرن العشرين، بدءاً من العمل الذي قام به عالم المنطق الأمريكي شارلز ساندرس بيرس (Ch. S. Pierce). أما المجال الحق لهذا العلم فقد أسسه عالم أمريكي آخر هو س. و. موريس (C. W. Morris). يرى موريس أن السيميائية لم تكن مجالاً فلسفيا تخصصياً فحسب، بل إنها احتلت فوق ذلك موقعاً مركزياً في البحث العلمي بوجه عام. وقسّم موريس السيميائية إلى ثلاثة فروع: التداولية (Pragmatique)، وعلم الدلالة (Sémantique)، وعلم التراكيب(Syntaxe).

تتظافر هذه الجهود المتقدمة مع جهود لاحقة، قدّمها يلمسليف وبنفنيست، وتروبتسكوي، ومونان، وبارت ، وكريستيفا، وغريماس، ولوتمان، وإيكو... مُشكّلة تيارات سيميائية متمايزة، ومتعايشة ضمن هذه "الإمبراطورية العلامية" التي تقدّم نفسها علماً شمولياً يتسلط على سائر العلوم، ويحكمها بوصفها "فدراليات علمية" مرتبطة بقوانين المركزية.

تُعنى السيمائية بنظرية الدلالة، وإجراءات التحليل التي تساعد على وصف أنظمة الدلالة؛ فهي لا تولي عناية بالدليل، ولا تنظر في العلاقة الممتدة من الدال إلى المدلول. فهي تعتب كل صعيد من صعيدَيْ التعبير (الدال) و(المدلول) يتمفصل من خلال تنظيم خصوصي، هناك "شكل التعبير"(عندما يتعلق الأمر بالنص، التنظيم النحوي والأسلوبي). وهناك "شكل المضمون" الذي تهتم السيميائية بوصفه على وجه الخصوص، وإبرازه؛ أي تنظيم المدلول.

***بعض المُسلّمات والمبادئ القاعدية**

- **مبدأ المحايثة**: وصف الأشكال الداخلية لدلالة النص، أو التمفصلات المُشكّلة للعالم الدلالي المصغّر. لا نحتاج إلى أخبار "أجنبية" عن النص.

- **المُسلّمة البنوية**: أشكال العلاقات (البنية)

- مستويات الدلالة: المستوى السيميائي.

- (أو المنطقي الدلالي)

- المستوى السردي

- المستوى الخطابي

ترسم هذه المستويات الثلاثة مسارَيْن (أ) و(ب):

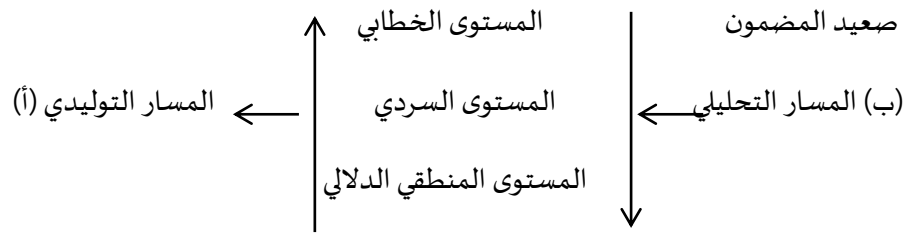

***المسار التوليدي** (نظري خالص)

الانتقال من المستوى المنطقي الدلالي (حيث تتمفصل "القيمة الأولية" للدلالة على نحو تجريدي خالص)، إلى المستوى السردي (حيث تتقدم هذه العناصر الدلالية كـ"عوامل" منضوية تحت البرامج السردية)، والمستوى الخطابي (حيث تتقدم هذه العوامل كـ"ممثلين" في وضعيات فضائية وزمنية).

***المسار التحليلي** (هذا ما يقوم به المحلل السيميائي)

ينطلق من المستوى الخطابي (حيث يدرك الممثلون، الفضاءات، الأزمنة، وبشكل مختصر، التنظيم الصوري للمضمون)، إلى المستوى السردي (حيث تعمل العناصر الصورية المرتبة في النص على تجلية الرهانات والمسارات السردية)، لتمتد على المستوى المنطقي الدلالي (حيث تشمل هذه الرهانات التمفصل الأساسي لمضمون النص).

نجد على رأس هذه الطريقة "غريماس(J. Greimas)" الذي استمد منهاجيته من مصادر متعددة؛ أهمها الأنثروبولوجيةالبنوية (ليفي ستراوس)، والشكلانية (فلاديمير بروب)، ونظرية العوامل (تنيير)، وفلسفة العمل، والنحو التحويلي - التوليدي وغيرها. وقد استثمر هذا كله فانطلق من تصور الخطاب على أن مكوَّن من عدد من المستويات: مستوى أعمق (البنية العميقة)، وهو المورفولوجية التصنيفية المؤسسة على علائق رياضية ومنطقية (أو شبيهة بهما)، مستمدة من زمرة "كلاين"، ومن المنطق الصوري الأرسطي، وتتجلى في المربع السيميائي بحدوده، وحدود حدوده، وهو كالآتي:

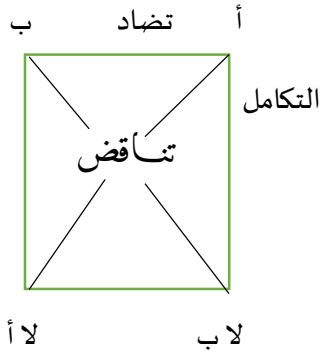

ومستوى عميق هو تحويل لعلائق المستوى الأعمق. ويبرز هذا المستوى في العمليات التحويلية المؤدية إلى تمليك العامل الذات موضوعاً أو حرمانه منه. وهذا التمليك أو الحرمان يؤدي إلى بنية الصراع، أو هو نتيجة لها، قائمة على ستة عوامل:

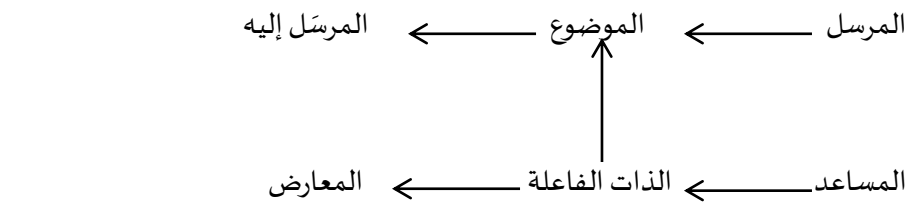

وأما المستوى الثالث فهو سطحي يتجلى في المستويات الدلالية للخطاب (البنية السطحية)؛ أي المستوى التصويري والمستوى الموضوعاتي والمستوى القيمي.

وتُستخلص هذه المستويات بالمزاوجة بين التحليل العام والتحليل الدقيق، التحليل المعتمد على مفردات اللغة، والمؤسس على تفكيك المفردات إلى مقومات ذاتية، وعلى تشييد مقومات سياقية.

وما يهمنا من خلال تطبيق هذه المنهاجية هو استنتاج بعض الخصائص الخطابية، وهي:

*__السردية__: دعامة الخطاب، يجب المحافظة عليها في الترجمة من لغة إلى لغة أخرى.

*__الدينامية__: كل نص ينمو بحسب دينامية محايثة قائمة على التناقض والتضاد (النصوص الحكائية).

*__الانغلاقية أو الدورية__: إذ ينطلق الحكي من الامتلاك إلى الفقد والعكس صحيح، وهكذا دواليك.

*__انسجام النص__: تفرض خاصية الدورية أن يكون الخطاب أو النص منسجاً. ومع ذلك فقد اقترح "غريماس" مفهوم التشاكل، لتأكيد انسجام الخطاب، أو إيضاحه، وإن كان مبهماً، أو تشييد موضوعاته، ورسائله العامة والخاصة.

*__التشاكل(Isomorphie)__

قام بهذه الدراسة واحد من أبرز السيميائيين المعاصرين، وهو "جوزيف كورتاس"؛ أي التشاكل والترابط بين التعبير والمضمون، لعبة الترابطات الممكنة بين التعبير والمضمون. والتشاكل في الأصل يمثل موضوع البحوث الأنثروبولوجية. فالسيميائية اخترقت مختلف مجالات النشاط الثقافي البشري، فهي لا تتوقف عند حدود السردية أو الشعرية، بل ترمي أيضاً إلى تناول مختلف مجالات الوقائع الثقافية.